الطبـري مفسـراً

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، ودستور المسلمين ، ومنبع الحياة الروحية والأخلاقية والعقدية والاجتماعية والثقافية والحضارية في كل زمان ومكان.

وقد تكفل الله تعالى بحفظه نصاً وروحاً ، وعكف المسلمون عليه تلاوة وحفظاً ، ودراسة وتفسيراً ، وعلماً وعملاً ، وفهماً وتطبيقاً ، ولقي من الرعاية والعناية ما لم يتوافر لكتاب آخر في هذا الكون.

وقام على تفسير القرآن الكريم وتأويله ، وشرحه وبيانه ، ومعرفة حكمه وأسراره ، ومقاصده وأحكامه ما لا يحصى من العلماء في مختلف العصور ، ومن مختلف الأجناس والأقوام ، وسيبقى ـ إن شاء الله تعالى ـ يحتل سويداء القلب ، ويملأ العين ، ويهب الخير والهدى ، والرشاد والسعادة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن هؤلاء المفسرين الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ، الآملي البغدادي الذي وُلد بآمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ ، وطوف بالبلاد في طلب العلم ، ورحل إلى الآفاق لتحصيل المعرفة ، والتقى بعلماء الأمصار ، ثم وضع عصا الترحال ، واستقر في

بغداد ، وتفرغ للتدريس والتصنيف والإفتاء حتى وافته المنية سنة ٣١٠هـ عن عمر يُناهز ستاً وثمانين سنة[١] .

وقد تبوأ الإمام الطبري القمة ، وبلغ الذروة في تفسير القرآن العظيم في كتابه «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» حتى عرف قديماً وحديثاً بأنه «شيخ المفسرين» أو «إمام المفسرين» أو أنه «أبو التفسير» وأودع في كتابه ما حباه الله تعالى به من العلوم الشرعية المختلفة التي تتكون منها ثقافته الواسعة ، حتى أصبح تفسيره «عمدة المفسرين» .

والتفسير أحد العلوم الشرعية الأساسية ، لأنه يبحث عن معاني كلام الله تعالى الذي أمر بتدبره ، وتفهم معانيه ، ومعرفة أحكامه ، ليدرك الناس عظمة الله تعالى ، وفضله عليهم ، وحقه عندهم ، فيقوموا بما أمرهم به ، ويجتنبوا ما نهاهم عنه ، قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة ص: ٢٩] ، لأن الله تعالى أنزله هداية للناس ، ورحمة لعباده ، ونوراً للبشرية .

وعرف الزركشي علم التفسير «بأنه علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»[٢] ، وهذا التعريف شامل لمعظم علوم القرآن ، لكنه أهمها على الإطلاق نظرياً وعملياً وعلمياً ، ويدخل فيه علم القراءات ، وعلم الرسم القرآني وعلم أسباب النزول ، وتاريخ القرآن ، وجمعه وتدوينه ونسخه ، وإعراب

---

(١) انظر ترجمة الطبري في طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٠ ، تهذيب الأسماء ١/ ٧٨ ، تذكرة الحفاظ ٢/ ٧١٠ ، ميزان الاعتدال ٣/ ٤٩٨ ، طبقات الفقهاء ص٩٣ ، طبقات القراء ٢/ ١٠٦ ، تاريخ بغداد ٢/ ١٦٢ ، معجم الأدباء ١٨/ ٤٠ ، وفيات الأعيان ٣/ ٣٣٢ ، إنباه الرواة ٣/ ٨٩ ، البداية والنهاية ١١/ ١٤٥ ، الفهرست ص٣٢٦ ، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧ ، روضات الجنات ٧/ ٢٩٢ ، الأعلام ٦/ ٢٩٤ .

(٢) الإتقان للسيوطي ٢/ ١٧٣ ، البرهان للزركشي ٢/ ١٤٧ .

القرآن ، مكيه ومدنيه ، وبلاغته وبيانه ، وإعجازه وأحكامه ، وألفاظه وجمله ، وناسخه ومنسوخه ، وهذا ما يتناوله التفسير الموسع ، كما هو الحال في تفسير الطبري ، ونجد بعضه في التفاسير المتوسطة والوجيزة بحسب اهتمام المفسر ومنهجه وغايته[1] .

وظهر التفسير حقيقة مع نزول القرآن الكريم ، بأن يبين القرآن معنى آية بآية أخرى ، أو يشرح لفظاً مجملاً بآخر مبين ، أو يحدد المراد من اصطلاح شرعي ، وهو أول أنواع التفسير ويعرف بتفسير القرآن بالقرآن ، ثم تجلى التفسير بشكل أوسع في بيان رسول الله ﷺ وتفسيره لآيات القرآن في الحديث الشريف قولاً وفعلاً وتقريراً ، وهو النوع الثاني من التفسير ، ويسمى تفسير القرآن بالسنة ، وهو أحد الوظائف النبوية والمهمات الدينية المكلف بها من الله تعالى ، بقوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] ، والقرآن الكريم نزل بلغة عربية على أمة عربية ، فأدرك الصحابة رضوان الله عليهم معانيه ، وفهموا ألفاظه ، وأحاطوا بمقاصده وتراكيبه ، ورأوا أسباب نزول الآيات ومناسباتها ، وإذا أشكل عليهم شيء فزعوا إلى رسول الله ﷺ يسألون عنه ، ويقفون على مراد الله ، وطبقوا القرآن عملياً في حياتهم ، وتصدى كبار الصحابة إلى بيان المعنى الصحيح والتفسير المقبول بما أخذوه عن رسول الله ﷺ واستناداً إلى اللغة العربية ، ومقاصد الشريعة وأسباب النزول وإعمال عقولهم واجتهادهم فظهر التفسير بالرأي وتبوأ عدد من الصحابة مركز الصدارة في تفسير القرآن الكريم ، وأبرزهم الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم ، وأكثر من تصدى لذلك منهم الإمام عليّ كرَّم الله وجهه الذي كان يقول: «سلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا وأنا

---

(١) عدد السيوطي العلوم التي تدخل في التفسير ، وأوصلها إلى خمسة وخمسين نوعاً (انظر: تمام الدراية ص٢٦ ، النقاية ص٢٦٢).

أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم في جبل» وكان يقول: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت ، وأين نزلت ، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ، ولساناً سؤولاً». ومن الصحابة المفسرين عبد الله بن مسعود الذي كان يقول مثل ما قال علي رضي الله عنهما ، ومنهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسىٰ الأشعري وعبد الله بن الزبير ، وترجمان القرآن ، وحبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهم[1].

ثم قام التابعون برواية التفسير عن الصحابة ، ثم أدوا وظيفتهم ، وأضافوا اجتهادهم ورأيهم ، ثم قام صغار التابعين ، وتابعو التابعين بتدوين الروايات المأثورة في التفسير ، إلى أن بدأ تدوين العلوم في منتصف القرن الثاني الهجري ، فصنفت كتب التفسير ، وفي القرن الثالث الهجري ظهر منهج النقد للروايات والنصوص المتعلقة بالتفسير ، وبيان أصول التفسير ، فجاء الإمام أبو جعفر الطبري يمثل ذروة ما وصل إليه التفسير في القرون الثلاثة الأولى ، وسجل جميع ذلك في كتابه التفسير ، وهنا نصل إلى صلب الموضوع.

لم يجرؤ الطبري رحمه الله تعالى على التعرض لتفسير القرآن الكريم إلا بعد أن حصل على المؤهلات العلمية الكافية لذلك ، وامتلك الوسائل الأساسية التي تؤهله لتفسير القرآن الكريم الذي حفظه عن ظهر قلب من الصغر ، وأخذ في جمع القراءات على أصحابها حتى أتقنها ، وصار إماماً في القراءات ، وصنف كتباً فيها ، وتمرس باللغة العربية ، وملك ناصية البيان والفصاحة واطلع على بيان القرآن الكريم في السنة ، وجمع أقوال الصحابة والتابعين في تفسير القرآن الكريم ، ودرس ما وصل إليه علم التفسير قبله ، وحاز ناصية العلوم التي تتعلق بالقرآن ، ثم استخار الله

---

(١) انظر: مفتاح السعادة ٢/ ٦٤ ، تفسير القرطبي ١/ ٣٥ ، الإتقان ٢/ ٢٣٩ ، تفسير الطبري ١/ ٣٦ ، التفسير والمفسرون ٣/ ٦٣.

تعالى في عمل كتاب التفسير ، وسأله العون على ما نواه ثلاث سنوات قبل البدء به ، ثم شرح الله صدره لذلك ، وأعانه على عمله وإتقانه وكماله ، مع ما وهبه الله تعالى من ذكاء خارق ، ونبوغ فكري ، وزهد في الدنيا ، وتقوى وورع[1] ، وقيل إنه صنف التفسير سنة ٢٧٠هـ ، وقيل استمر في إملائه خلال ٢٨٠ ـ ٢٩٣هـ.

ويرى الإمام الطبري أن من أعظم منن الله تعالى على عباده تنزيل القرآن الكريم الذي هو دستور الحياة للمسلم ، وناموس الوجود للعاقل ، وفيه الهدى والخير والنور ، وأنه الفضيلة العظمى التي شرف الله بها أمة محمد ﷺ على سائر الأمم ، فيقول:

«فإن من عظيم ما خص الله به أمة محمد ﷺ من الفضيلة ، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة ، وحباهم به من الكرامة السنية: حفظه ما حفظ ـ جل ذكره ، وتقدست أسماؤه ـ عليهم من وحيه ، وتنزيله ، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة ، وعلى ما خصه به من الكرامة علامة واضحة ، وحجة بالغة. . . فجعله لهم في دجى الظلم نوراً ساطعاً ، وفي سدف الشبه شهاباً لامعاً ، وفي مضلة المسالك دليلاً هادياً ، وإلى سبيل النجاة والحق هادياً ، ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦][2].

وبما أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، وأنه أنزل للتطبيق والعمل ، وأنه كتاب للتدبر والتفكر ، فإن الإنسان يحتاج إلى تفسيره ، وبيان ما يتضمنه من أساليب اللغة المختلفة ، والحقيقة والمجاز ،

---

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٦٢ ، وانظر المقومات التي يجب أن تتوافر في المفسر في (الإتقان ٢/ ١٨٥ ، البرهان ١/ ٣٤).

(٢) تفسير الطبري ١/ ٤.

والصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب ، والقصص والأمثال ، والأخبار والأحكام ، والعقيدة والشريعة ، والتربية والأخلاق ، والمصطلحات الشرعية ، والاعتبارات العرفية ، فظهرت الحاجة إلى التفسير منذ نزول الوحي ، فبين القرآن الكريم بعضه ببعض ، ونهض رسول الله ﷺ بالبيان بذاته ، وهرع إليه الصحابة رضوان الله عليهم للاستفسار عن مراد الله وغايته وهدفه ، ثم نهض كبار الصحابة وعلماء الأمة بهذه المهمة المقدسة.

لذلك يرى الطبري رحمه الله تعالى وجوب تعلم التفسير ، واتجه بنفسه إلى تعلمه ، وجاب البلاد في دراسته وأخذه من أفواه العلماء ، وعكف على ما كتب من التفاسير قبله ، وجمع آلات المفسر ، ثم فكر بتصنيف تفسير خاص ، أداءً للواجب ، وشعوراً بالمسؤولية ، ونشراً للعلم ، وكان يقول: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ، ولم يعلم تأويله ، كيف يلتذ بقراءته»[1].

وعقد الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ فصلاً في مقدمة تفسيره بعنوان «ذكر بعض الأخبار التي رويت في الحض على العلم بتفسير القرآن» وقال فيه: «قد أمر الله عباده بتدبره وحثهم على الاعتبار بأمثاله»[2] ، ثم أفاض الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ بذكر فضل التفسير ، وأهميته ، وثواب القائمين عليه وبيان نهجه ، وقدم كتابه العظيم «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» فجاء موسوعة علمية كبرى ، ودائرة معارف للعلوم المتنوعة ، وبلغ ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير ، وتناول تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيبه المنزل ، سورة فسورة ، وآية فآية ، بعد أن قدم له بمقدمة نفيسة في أصول التفسير.

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٦٣ ، تفسير الطبري ١/ ٣.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٣٥ ـ ٣٧.

ولخص العلامة ياقوت الحموي الوصف الجامع لمحتويات هذا التفسير ، فقال: «وكتاب التفسير كتاب ابتدأه بخطبة ، ورسالة التفسير ، تدل على ما خص الله به القرآن العزيز من البلاغة والإعجاز والفصاحة التي نافى بها سائر الكلام ، ثم ذكر من مقدمات الكلام والتفسير ، وفي وجوه تأويل القرآن ، وما يعلم تأويله ، وما ورد في جواز تفسيره ، وما حظر من ذلك ، والكلام في قول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» وبأي الألسنة نزل ، والرد على من قال: إن فيه أشياء من غير الكلام العربي ، وتفسير أسماء القرآن ، والسور ، وغير ذلك مما قدمه ، ثم تلا بتأويل القرآن حرفاً حرفاً ، فذكر أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من تابعي التابعين ، وكلام أهل الإعراب من الكوفيين والبصريين ، وجملاً من القراءات ، واختلاف القراءة مما فيه من المصادر واللغات ، والجمع والتثنية ، والكلام في ناسخه ومنسوخه ، وأحكام القرآن ، والخلاف فيه ، والرد عليهم من كلام أهل النظر فيما تكلم فيه بعض أهل البدع والرد عليهم ، على مذاهب أهل الإثبات ، ومبتغى السنن إلى آخر الزمان»[1].

وجاء اسم التفسير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ليكون دليلاً على المسمى ، ويكون مشيراً إلى المضمون ، وحقق الإمام الطبري ما قصده ، فصار تفسيره ـ بحق ـ يجمع وجوه البيان ، وأقوال العلماء ، وآراء المجتهدين ، واجتهاد الصحابة والتابعين في المأثور والمنقول ، والرأي والمعقول ، ووازن بين الآراء المختلفة ورجح ما وجده أقرب إلى الحق ، أو أقوى من اللغة وكلام العرب ، وبما هو ثابت في الشرع ، وأصح في العقل.

وقصد الطبري من كلمة التأويل معناها الاصطلاحي ، ليكون التأويل

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٣.

درجة بعد التفسير ، وللجمع بين الأمرين معاً ، فالتأويل بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة ، أو أنه معرفة المعنى بالاجتهاد والاستنباط والرأي ، والاستدلال على ذلك ، بالأدلة المختلفة: العقلية والنقلية ، والتاريخية واللغوية ، مع استنباط الأحكام ، وتحديد العقيدة ، وبيان المراد من النص ، أما التفسير فهو معرفة المعنى بالنقل والرواية ، أو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة ، فالتفسير عند الطبري مقدمة للتأويل ، وجاء تفسيره جامعاً بين التفسير والتأويل ، والتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي[1] .

وكانت مصادر تفسير الطبري كثيرة من جهة ، ومتنوعة من جهة أخرىٰ ، لأنه احتوى على العلوم الشرعية واللغوية والعقلية والتاريخية ، وأصبح من أكبر ذخائر الإسلام في عصره[2] ، فضم في جوانبه التفاسير المأثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وما صح نقله عن التابعين الثقاة ، كسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والحسن البصري ، وعكرمة ، والضحاك ، وابن جريج ، ومقاتل بن حيان ، وتجنب النقل في «التفسير» عن محمد بن السائب الكلبي ، ومقاتل بن سليمان ، ومحمد بن عمر الواقدي ، لأنهم أظناء في الحديث والتفسير ، ويستأنس برأيهم في التاريخ والسير وأخبار العرب ، كما اعتمد الطبري رحمه الله في تفسيره على كتب الحديث ، ومشهور كتب السنة في روايات التفسير ، واعتمد في اللغة والمعاني على كتب الكسائي والفراء والأخفش الأوسط

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٠/٣٩١ ، التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين ص٥١ ، التفسير والمفسرون ١/١٥١ ، البرهان ٢/١٤٦ ، الإتقان ٢/١٤٢ ، ١٧٣ ، دراسات في الفكر المعاصر ١/٢٩٦ ، ٢٩٨ .

(٢) قال أبو محمد الفرغاني عن الطبري: «ثم من كتبه التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب ، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل» (سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٣).

وقطرب ، واستوعب الطبري جميع كتب تفسير التي صنفها قبله التابعون وتابعو التابعين ، ويُضاف إلى ذلك كتب تفسير آيات الأحكام ، وعلم الجدل وأصول الدين ، فصاغها بأسلوبه البين ، وطريقته الحكيمة ، وعبارته الناصعة ، ومنهجه السديد ، لذلك قال السيوطي عنه: «وكتابه أجل التفاسير وأعظمها»[1].

واحتل تفسير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ مكان الصدارة عند العلماء ، وفي مجالس العلم ، وحظي بالثناء العاطر في مختلف العصور ، وانكب عليه الباحثون في الدراسة ، ينهلون من معينه ، ويرشفون من حوضه ، ويقتبسون من علومه ، فكان العمدة «عمدة المفسرين».

وانتشر تفسير الطبري في الآفاق ، وحاز شهرة عالمية ، وانكب الناس على نسخه وقراءته والاستفادة منه قديماً ، وحفظ الله هذا التفسير المبارك ، ونجا من الدمار والبِلى ، والاندثار والحرق ، والإتلاف والعبث الذي أصاب كثيراً من التراث الإسلامي الزاخر ، خلال الفترات المظلمة ، والنكبات المدمرة ، والعدوان الأثيم على ديار المسلمين وحضارتهم ، وسارع المخلصون ـ في هذه الأمة ـ إلى خدمة هذا التفسير ، وإظهاره للنور ، ونشره في المكتبات والأسواق ، ووضعه تحت أيدي العلماء والباحثين وطلاب المعرفة ، وحاز آل الحلبي بالقاهرة قصب السبق إلى طباعته ونشره لأول مرة سنة ١٣٢١هـ بالمطبعة الميمنية ، فنالوا شرف الريادة في ذلك ، وكسبوا الأجر العظيم ، والثواب العميم عند الله تعالى ، ثم طبع للمرة الثانية في مطبعة بولاق الأميرية بمصر سنة ١٣٢٣هـ إلى سنة ١٣٣٠هـ ، وعلى هامشه تفسير

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/١٨٦ ، ١٩٠ ، وقال السيوطي أيضاً: «أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله» وأرشد الناس إلى التعويل عليه. (المرجع السابق)

النيسابوري ، ثم أخرجته شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر في طبعة جديدة سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م ، وقام على تصحيح هذه الطبعة والعناية بها ، واستدراك الأخطاء والتحريف ، ومراجعة نسخ خطية ـ جديدة ـ هيئة من العلماء الأجلاء ، على رأسهم الأستاذ مصطفى السقا الذي كتب خاتمة للتفسير وتعريفاً به ، وبياناً لعمل اللجنة ، وأنهم عملوا في كل جزء ثلاثة فهارس للآيات المفسرة ، والموضوعات ، والقوافي ، وألحقوا بالجزء الثلاثين فهرسة جامعة للقوافي في جميع أجزاء الكتاب ، ثم قامت دار المعارف بمصر بأهم طبعات التفسير «تفسير الطبري» بتحقيق وضبط ، ومراجعة للنصوص والشواهد ، وتخريج للأحاديث والروايات والأخبار من الأديب المؤرخ العالم محمود شاكر ، والفقيه القاضي المحدث الشيخ أحمد شاكر ، وبدىء بهذه الطبعة سنة ١٣٧٤هـ ، وظهر منها حتى الآن ستة عشر جزءاً ، والجميع يسألون الله تعالى أن يُعين الأستاذ محمود شاكر بإتمامه وتحقيقه ، وأخيراً ـ وليس آخراً ـ فقد طبعت دار الفكر بلبنان تفسير الطبري ، تصويراً عن طبعة الحلبي الثانية ، مع حذف مقدمة الناشر ، واستبدلها بمقدمة للشيخ محيي الدين الميس مدير أزهر لبنان عن ترجمة الطبري ، ونبذة عن تفسيره في أربع صفحات ، وإضافة فهرس رابع للأحاديث النبوية في كل جزء ، وذلك سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

ومن مظاهر أهمية «تفسير الطبري» والإقبال عليه ، قيام العلماء باختصاره وترجمته ، ليعم نفعه ، ويسهل تناوله ، فاختصره قديماً أبو يحيىٰ محمد بن صمادح التجيبي الأندلسي (٤٨٤هـ) ، وطبعته دار الشروق على هامش المصحف عام ١٣٩٧هـ في ٧٢٤ صفحة من الحجم الكبير ، واختصره أيضاً أبو بكر أحمد بن علي بن بيغجور المعروف بابن الأخشيز من رؤساء المعتزلة وزهادهم ، ثم اختصره حديثاً الشيخ محمد علي الصابوني والدكتور صالح أحمد رضا ، وطبعته دار القرآن الكريم في

بيروت عام ١٤٠٣هـ ، وترجم «تفسير الطبري» إلى اللغة الفارسية بأمر أبي صالح منصور بن نوح الساماني المتوفىٰ سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م ، وترجم مختصراً آخر لشخص غير معروف إلى اللغة الفارسية ، كما ترجم إلى التركية ، وأخيراً قام الأستاذ فؤاد عبد الباقي بتصنيف «تخريج أحاديث وآيات وتعليق على تفسير الطبري» بالقاهرة سنة ١٩٥٨م[١].

وإذا عدنا إلى تفسير الطبري وتحليل محتواه وجدنا أن الإمام الطبري رحمه الله تعالى لم يجرؤ على تفسير القرآن الكريم بمجرد الهوى والتشهي والرأي ، بل سار عل منهج واضح ، وخطة حكيمة ، وقدم لكتابه بمقدمة عظيمة ومستفيضة بين فيها أصول علم التفسير ، ورسم قواعده وحدد شروطه ، وأقام السياج الأمين للحفاظ على مقاصد الشريعة ، فكان الطبري ـ بحق ـ مؤسس أصول التفسير ، وباني حدوده وقواعده ، مما يُوجب انفراده بكتاب مستقل ، لضمان الفهم السليم لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولتحقيق الاستفادة الكاملة منه ، وجني الثمار من تدبره وفهمه وتفسيره وتأويله ، ولمنع الانحراف فيه قصداً أو بدون قصد ، واجتثاث العبث والتلاعب فيه ، ولم يضع الطبري هذه القواعد والأسس لتبقى نظرية وفلسفية ، بل قام بنفسه باتباعها ، والسير عليها ، والتزامها ، والاهتداء بنورها ، والاستفادة من شهدها.

قال الإمام الطبري: «ونحن في شرح تأويله ، وبيان ما فيه من معانيه ، منشئوون ـ إن شاء الله ذلك ـ كتاباً ، مستوعباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعاً ، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً ،

---

(١) انظر تاريخ التراث العربي ١/ ٢/ ١٦٧ ، الفهرست ص٣٢٧ ، تاريخ الأدب العربي ٢/ ٤٩ ، الأعلام ١/ ١٦٥ ، ويقوم الآن أحد طلابنا المتخرجين من كلية الشريعة بطبع مختصر الطبري لابن صمادح في بيروت.

ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا في اتفاق الحجة فيها اتفقت عليه الأمة ، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ، ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم ، موضحو الصحيح لدينا من ذكر ، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك ، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه ، والله نسأل عونه وتوفيقه ، لما يقرب من محابه ، ويبعد من مساخطه»[1] ثم شرع الطبري بتفصيل منهجه في أصول التفسير ، مع ذكر الأدلة الشرعية واللغوية ، وضرب الأمثلة العملية من القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام العرب واللغة والشعر.

ولخص لنا الأستاذ الفاضل محمد محمود الحلبي ـ في كلمة الناشر للطبعة الثالثة ـ منهج الطبري باختصار ، فقال:

«وهو تفسير ذو منهج خاص ، يذكر الآية أو الآيات من القرآن ، ثم يعقبها بذكر أشهر الأقوال التي أثرت عن الصحابة والتابعين من سلف الأمة في تفسيرها ، ثم يورد ـ بعد ذلك ـ روايات أخرى متفاوتة الدرجة في الثقة والقوة في الآية كلها ، أو في بعض أجزائها ، بناء على خلاف في القراءة ، أو اختلاف في التأويل ، ثم يعقب على كل ذلك بالترجيح بين الروايات ، واختيار أولاها بالتقدمة ، وأحقها بالإيثار ، ثم ينتقل إلى آية أخرى ، فينهج نفس النهج: عارضاً ، ثم ناقداً ، ثم مرجحاً».

«وهو إذ ينقد ، أو يرجح النقد أو الترجيح إلى مقاييس تاريخية من حال السند في القوة والضعف ، أو إلى مقاييس علمية وفنية ، من الأحكام إلى اللغة التي نزل فيها الكتاب ، نصوصها وأقوال شعرائها ، ومن نقد القراءة وتوثيقها أو تضعيفها ، ومن رجوع إلى ما تقرر بين العلماء من أصول العقائد ، أو أصول الأحكام أو غيرها من ضروب المعارف التي

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٥.

أحاط بها ابن جرير ، وجمع فيها مادة لم تجتمع لكثير من غيره من كبار علماء عصره»[1].

ونكتفي في هذا المجال بهذا القدر الموجز من منهج الطبري في التفسير ، لنترك تفصيله وبيانه إلى مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى.

وأخيراً نشير إلى أن تفسير الطبري لم يسلم من النقد ، وأورد العلماء عليه بعض المآخذ؛ منها أن الطبري رحمه الله تعالى لم يطبق منهجه النقدي الكامل للأسانيد على جميع ما جاء في تفسيره ، مع وجود بعض الروايات الضعيفة التي لم ينبه عليها ولم يكتشفها ، كما حشد في تفسيره مجموعة من الروايات الإسرائيلية والأساطير وقصص الوعظ الخيالية ، واكتفى بسردها وذكرها ، وسكت عنها ، فكانت سبباً للتسرب إلى كتب التفسير مع حذف أسانيدها ، وفند الأستاذ محمود شاكر هذه الشبهة ، وبين مقصد الطبري من ذكر ذلك ، مع تقييدها بالسند ، وأن الطبري لا يحمل جريرة المفسرين بعده الذين أفشوها مرسلة في كتبهم ، كما أخذ الطبري أنه ذكر بعض الروايات المتناقضة عن ابن عباس رضي الله عنه ، ولم يرجح واحدة على أخرى ، وأنه انتقد بعض القراءات المتواترة ، وأبهم أسماء بعض علماء العربية الذين أخذ منهم.

والطبري ليس معصوماً ، وكل إنسان يُؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب النبوة والوحي ، كما قال الإمام مالك ، وكتاب الطبري يبلغ ستة آلاف صفحة ، فليس غريباً أن ترد عليه بعض المآخذ ، وتصدر منه بعض الأخطاء ، ولكنها أخطاء محدودة ، ومآخذ معدودة لا تتجاوز عدد الأصابع ، وينطبق عليه المثل العربي في قول الشاعر: «كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه» وقد شهد إمام اللغة غلام ثعلب أنه قرأ جميع التفسير ولم يجد

---

(١) تفسير الطبري ، المقدمة ١/ ٤.

فيه خطأ في اللغة والنحو ، وأخطاء الطبري ـ والحمد لله ـ ليست في العقيدة وأصول الدين ، ولا في أركان الإسلام ، وقواعد الشرع ، ولا في الأحكام القطعية ، ولا في النصوص الثابتة ، ولا في معاقد الإجماع ، ويمكن للطبري ـ رحمه الله ـ أو لغيره أن يعتذر عن هذه المثالب البسيطة ، أو يرد عليها ، ويناقش فيها ، وهي في مجملها لا تظهر للعيان ، ولا تقف أمام عمله الجبار ، وجهده المبارك ، وثوابه الكبير ، ومكانته المرموقة ، فالمجتهد إن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر .

ولنا الأمل الوطيد أن تتضاعف الدراسات الإسلامية في تفسير الطبري ، لاستخراج فقهه وآرائه ومذهبه ، وجمع الشواهد الشعرية منه ، وإفراد آيات الأحكام في كتاب مستقل ، وتبذل الجهود الخيرة في طبعه ونشره ، ليعم نفعه ، ويستمر عطاؤه ، ولينتفع الناس به ، سائلين الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا ، وجلاء أحزاننا ، وأن يرزقنا تلاوته والعمل به آناء الليل وأطراف النهار ، وأن يجعلنا ملتزمين أحكامه وتربيته ، ونوره وهداه ، والحمد لله رب العالمين .

أهم مصادر البحث

١ ـ الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٢ ـ الأعلام ، خير الدين الزركلي ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٣ ـ إنباه الرواة على أنباء النحاة ، جمال الدين علي بن يوسف القفطي (٦٤٦هـ) مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

٤ ـ البداية والنهاية ، للحافظ المؤرخ ابن كثير (٧٧٤هـ) تصوير عن الطبعة الأولى ـ ١٩٦٦م.

٥ ـ البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ) ، الطبعة الأولى/ القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

٦ ـ تاريخ الأدب العربي ، كارول بروكلمان ، الجزء الثالث ، طبع دار المعارف بمصر سنة ـ ١٩٦٢م.

٧ ـ تاريخ بغداد ، للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) طبعة الخانجي بالقاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م.

٨ ـ تاريخ التراث العربي ، الدكتور فؤاد سزكين ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٩ ـ تذكرة الحفاظ ، للإمام شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ) تصوير دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، بلا تاريخ.

١٠ ـ التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين فيه ، الدكتور محمد أبو النور الحديدي ، نشر مكة المكرمة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١١ ـ تفسير الطبري ـ جامع البيان ، الإمام محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) مطبعة الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

١٢ ـ تفسير القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) ط٣ ، دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١٣ ـ التفسير والمفسرون ، للشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي ، طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

١٤ ـ تمام الدراية ـ إتمام الدراية ـ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) مطبوع على هامش مفتاح العلوم ، القاهرة ـ ١٣١٧هـ.

١٥ ـ تهذيب الأسماء واللغات ، محيي الدين بن شرف النووي (٦٧٦هـ) تصوير دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٦ ـ دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر ، الدكتور فتحي الدريني ، طبع دار قتيبة بدمشق ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٧ ـ روضات الجنات ، الميرزا محمد باقر الخوانساري (١٣١٣هـ) طبع طهران سنة ١٣٩٢هـ.

١٨ ـ سير أعلام النبلاء ، للحافظ محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ) ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٩ ـ طبقات الشافعية الكبرىٰ ، تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي (٧٧١هـ) عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

٢٠ ـ طبقات الفقهاء ، الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الشيرازي (٤٧٦هـ) دار الرائد العربي ـ بيروت ١٩٧٠م.

٢١ ـ طبقات القراء ، للإمام محمد بن محمد الجزري (٨٣٣هـ) تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢٢ ـ الفهرست ، محمد بن إسحاق ، ابن النديم (٤٣٨هـ) تصوير دار المعرفة ، بيروت ، بلا تاريخ.

٢٣ ـ معجم الأدباء ، ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦هـ) مطبعة المأمون بالقاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

٢٤ ـ مفتاح السعادة ، أحمد بن مصطفى ، طاش كبري زاده (٩٦٨هـ) مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة ١٩٦٨م.

٢٥ ـ ميزان الاعتدال ، للحافظ محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م.

٢٦ ـ النقاية من إتمام الدراية ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) على هامش مفتاح العلوم ، القاهرة ١٣١٧هـ.

٢٧ ـ وفيات الأعيان ، أحمد بن محمد بن خلكان (٦٨١هـ) مطبعة السعادة بمصر ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

* * *